

عمارة رغبة الجادرجي المعمار والمنظر والمعلم

في مراحل تطوُّر العمارة [2]



رهيف ضياء*

مراحل تطور العمارة

يقول رغبة الجادرجي إن العمارة عرِّفت في مسار تطورها أربع مراحل: المرحلة الأولى، هي مرحلة الإنسانيات الأولى، حيث استعمل الإنسان المادة التي وجدها كما هي فنقلها، وركبها تلبية لحاجته دون أي تغيير فيها، واعداد جميعها دون المشاس بها. المرحلة الثانية، هي مرحلة الإنسان العاقل، مرحلة مجتمع الصيد، حيث ابتكر الإنسان بعض التقنيات المبني الكوخ، وأنتج الأدوات المنزلية والملابس، وحقق بعض التحولات في المادة المتوافرة بطاقات جسدية بذلها، فأحدثت تحولات في إحساسه بالمادة، وفي وعيه بوجوده.

3- المرحلة الثالثة، هي مرحلة المعاصرة، التي غيّرت جذرياً الإنسان جسداً ووعياً وأحاسيسه. غيّرت احتكاكه بالمادة، وتفاعله المباشر معها، وأثناء تغييره لها، فحقق الفائض في الإنتاج، وأحدث تغييرات جذرية في حالة المادة الخام. ظهرت في هذه المرحلة الدولة المتوسعة ومعها الإمبراطوريات، فشيدت القصور والمعابد. ونشأت الحضارات الكبرى، ومنها: السومرية، والمصرية، والصينية، والهندية، والفينيقية والمسيكية.

وكانت الحرفية التقليدية وسيلة الإنتاج الرئيسية، حيث كان التعامل مع المادة لتحويلها

تجددت العمارة الحديثة في أعمال جماعة «الفرك باند» في ميونيخ في ألمانيا في بداية القرن العشرين

إلى أدوات - مصنّعات، يجري في تماس مباشر مع جسد الإنسان وأحاسيسه، يكرز الجادرجي، وشمّلت هذه المرحلة عمارة القرون الوسطى.

4- المرحلة الرابعة، هي مرحلة عصر النهضة في أوروبا، وظهور المكننة. لقد ظهرت عمارة عصر النهضة وفكرية في أوروبا، بفعل عوامل متعددة إجتماعية وفكرية. وأول هذه العوامل عامل تفرّد الإنسان المصنّع، وإبعاده عن المرجعية المشتركة. وقد عرّف الجادرجي هذا التفرّد، بمصطلح الشخص individuation، حيث تُصنّع معه مخلقة المفرد، حرّة من التزام شبكة التكريرات (الثقافات، cultures) المشتركة السائدة، ومن شروط التعامل معها، ما مهّد لابتكار عمارة المكننة.

1- عصر النهضة

يقول الجادرجي، إن المعاصرة في العمارة ظهرت مع ظهور عصر النهضة في أوروبا، في مطلع القرن الخامس عشر. وتمتدّ هذه المعاصرة، كموقف فكري وثقافى، حتى يومنا هذا. وقد

4-1 ظهور المكننة

أدّى ظهور المكننة في أواخر القرن الثامن عشر (الثورة الصناعية الأولى)، إلى تصنيع الحديد الصلب الذي استعمل في تصميم الجسور، ومحطّات القطارات، والبيوت الزجاجية، وغيرها من متطلبات الحاجات الجديدة، ولبدة المكننة والتقنيّة. ثم توسعت تقنيّة المكننة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع «الثورة الصناعية الثانية»، فشيد القصر البلووي، والكثير من الجسور، ومحطّات القطارات، وصلات العرض الكبرى، وغيرها من المنشآت، تلبية للحاجات الجديدة. فأتى شكل العمارة، متوافقاً مع جدليّة العلاقة بين المادة وطرق التصنيع من جهة، ومع الحاجات الجديدة من جهة أخرى، يؤكّد الجادرجي مجدداً. أخذت العمارة أشكالاً جديدة تلبية لحاجات جديدة، وتأسست بذلك، المبادئ التكوينية الأولى للعمارة الحديثة. وقد المصنّع غيّز الآلة، علاقته السيربانيّة الحسنة بالمادة التي يصنّعها، فتحقق بذلك تغيير جذري في طرق الإنتاج، أدى إلى نشوء الحدائنة في العمارة.

5-1 العلاقة الحسية بالتصنيع

إن تعقيد العلاقة الحسية (السيربانيّة) بالتصنيع، أو أن تُخفّفها وصولاً إلى الغائها، إن في ذلك جوهر التباين بين التصنيع اليدوي والتصنيع المكنن. وتبعاً لذلك التباين الجذري، بين العمارة التقليدية والعمارة الحديثة.

2- امية المعمار، واهية التقليد

1-1 تقدم العلوم، وظهور الفلسفة المعاصرة، مع تقدّم العلوم وظهور الفلسفة المعاصرة، التي تداخلت مع العلوم و تفاعلت معها، وأجه أوكهام الفكر اللاهوتي بالتجربة العملية، وروج أفكار التصنيع المكنن. وبالارتكاز على هذه الأسس الفكرية الضلّعة، حطم الإنسان الفرد القوود التي كبّلته قرونا، وتمزّد على المرجعية المشتركة التي كان ملتزماً بإيّاها. وأعلن انفكاكه عنها، وتصدّره لمرجعيات جديدة خاصة به ساهمت غالباً في توسيع المرجعية المشتركة في تغييرها.

2-2 المعمار في عصر النهضة في أوروبا والمعمار في عصر النهضة في أوروبا يذكّرنا الجادرجي محدداً في هذا السياق، بالمعمار في المجتمع التقليدي، حيث كان يقوم بدور الرئوي والمصنّع. هذا المعمار الذي صار في عصر النهضة في أوروبا الغربية أكاديمياً، وأصبح دوره مقصوراً على تصوّر رؤية لشكل المصنّع، إنه تتشخص عصر النهضة في أوروبا، الذي حقق بظهوره قدرّة فكرية، نقلت المجتمع الأوروبي إلى المعاصرة.

3-2 ظهور معمار عصر النهضة

ظهر مع حركة الفرد في المعاصرة، وشكل التقليديّة إلى المعاصرة، ومن المجتمع الأهلي ظهر مع حركة عصر النهضة على حرفة مقدّمة جسدها المتشخص، فتوّهة في تصوّراته الجديدة، قدراته ومعرفته وعاطفته وأحاسيسه. وسّع بذلك شبكة الكلجريات (الثقافات)، ونقل موقعه في مجتمع معنّ، بحيث أصبح يجالس رجال السلطة ورجال الدين وكبار الفكر. جُنّاش كل هؤلاء، من موقع الإنسان الفرد الحرّ، هذا الذي يتمنّع بقدرات معرفيّة وفنيّة، لا يتمنّع بها غيره من أفراد المجتمع. غيّز الإيديولوجية، وعيّن هكذا طوّرت المعاصرة، الطرز السائد في المجتمع باسم الفنان المتشخص الذي أضاف رؤى جديدة إلى وعي وجوده، عبّر عنها بأشكال جديدة، وتصوّرها بفردية.

كذلك تصدّى لسالة قيادة الفكر فيه، كذلك تصدّى فنّانو عصر النهضة لمسألة علاقتهم بالمجتمع، فرفقوه بأحاسيس جديدة، تصوّروها ذاتهم وللمجتمع في الوقت ذاته، ترافق كل ذلك مع الطباعة. ومع الفكر العلماني الديكارتي (1596-1650)، مؤكداً أن الذات هي قطب، يقابل الوجود والأشياء الأخرى، ويعرّف إليها.

ويهدأ أصبحت الذات قطباً، يقابله قطب وجود الأشياء حولها، يجرّد الجادرجي، مع حركة التشخص، ظهر فيرعون كثير، ومنهم المعمار المتشخص، ومن هموم المجتمع بالتحديد المبرني Leon Battista Alberti. تعددت المرجعيّات، وتوسّعت المعلومات، وتعقّقت المعرفة، فجزّب المتلقي العادي عن التحوار مع المعماريين والفنانين، الذين توسّعت معلوماتهم وتعدّدت مرجعيّاتهم.

وبقدر ما اكتفي المعمار النهضوي بالتشخص والتصور، فقد تماشاه المباشر والحقيقي بالمادة المصنّعة، انحصن هذا التماس في مرحلة التصنيع، التي أصبحت من اختصاص الحرفي أو العامل.

4-2 المعمار الرئويّة، حبراً

انحصرت مهنة المعمار في مرحلة الرؤى، وانزل بالتالي عن مراحل الدورة الإنتاجية الأخرى. ابتعد عن هموم المجتمع ومتطلباته المتلقّي، الذي فقد القدرة على تهيئة تغذية استرجاعيّة تجديية. أصبح من مهمّات المعمار المعاصر، تهيئة التغذية الاسترجاعية بالنسبة للمتلقي، فيستخلص الجادرجي من كل ذلك: 1- أولاً، الدورة الإنتاجية في مرحلة المعاصرة، فقدت شفافية التواصل بين مختلف مراحلها، فإذا تمكّنت مرحلتا الرئويّة والتصنيع، من جعل المصنّعات تتميّن بصفات إبتعالية، (توازن أمثل) فإن المتلقي لن يُعد في مقدوره أن يدرّكها وتقدّرها.

2- ثانياً، ظهور الإنسان الفرد المتشخص، شكّل عاملاً أساسياً في نقل المجتمع من صيدته التقليديّة إلى المعاصرة، ومن المجتمع الأهلي ظهر مع حركة عصر النهضة على حرفة مقدّمة جسدها المتشخص، فظهرت الحاجة إلى تصنيع الجسور، ومحطّات القطارات، وأنتج الإنسان العاقل، وهي آلة إنتاج الإنتاج، وأصبح يتعامل مع متطلبات الحاجة الإنسانية، أن يعي وأن يحصل على شخص آخر. ومع إنتاج الطاقة بواسطة الآلة، أي المكننة في الإنتاج أو الية الإنتاج، وحصول الفائض بفعل ذلك، تغيّر توزيع الناتج وتغيّر استهلاكه بين أفراد المجتمع، فتغيّرت بسبب ذلك العلاقات الاجتماعية تغيراً جذرياً.

3-3 المكننة، وفائض الإنتاج

لقد وفّرت المكننة فائضاً في الإنتاج، هذا ما يتوقف عنده الجادرجي، ليدكرنا بأن المجتمع التقليدي عندما حقق فائضاً في الإنتاج، إنما حققه بجهد بشري، مستهلكاً قووى وطاقتات بشرية في مجتمع معنّ، حرّ أو تابع، المهية هنا، أن يعي وإحدنا، أن توفير الطاقة وتشغيلها، كان يحصل عنّز جهد شخص آخر. ومع إنتاج الطاقة بواسطة الآلة، أي المكننة في الإنتاج أو الية الإنتاج، وحصول الفائض بفعل ذلك، تغيّر توزيع الناتج وتغيّر استهلاكه بين أفراد المجتمع، فتغيّرت بسبب ذلك العلاقات الاجتماعية تغيراً جذرياً.

3-3 الاختصاص أو التخصص

1-3 استخدام التطور الصناعي في البنّيان، أدّى التطوّر الصناعي وإستخدامه في البنّيان، إلى تحزئة المعرفة الهندسية العامّة، إلى معارف عدة مخصّصة، وتحزّت معها الدواز الرئويين المهتمين.

تطوّرت العلوم في عصر النهضة في أوروبا، هذا ما يُعيد الجادرجي تأكيدده، بهاجس تعليمي مختلف مجالات المعرفة، ليتمكّن العقل من إدراك سعة العلوم، وتعيّدها، وتعقيديتها، فظهر المهندس الإنشائي، والمهندس الكهربائي، والمهندس الميكانيكي، والمهندس المساح، وغيرهم. عزّزت متطلبات الاختصاص، المهندس المتخصص عن معظم متطلبات حاجات المجتمع، وأفقدته ارتباطه المباشر بالمتلقي، وأصبح هؤلاء أكفّار، في غاليديتهم، يجهلون الكثير من متطلبات المتلقي الحقيقية، في إحساسه وعاطفته.

2-3 الإنتاج المعاصر والعلاقة مع التغيير.

ويكون الإنتاج المعاصر إذاً، بإلغائه الجزء الأهم من العلاقة السربانية مع التغيير الحاصل في المادة أثناء تصنيعها. يكون الإنتاج المعاصر إذاً، قد حقق تغييراً جذرياً آخر في العلاقة بين الإنسان المختر والمادة، إضافة إلى التشخص.

4-2 المعمار الرئويّة، حبراً

انحصرت مهنة المعمار في مرحلة الرؤى، وانزل بالتالي عن مراحل الدورة الإنتاجية الأخرى. ابتعد عن هموم المجتمع ومتطلباته المتلقّي، الذي فقد القدرة على تهيئة تغذية استرجاعيّة تجديية. أصبح من مهمّات المعمار المعاصر، تهيئة التغذية الاسترجاعية بالنسبة للمتلقي، فيستخلص الجادرجي من كل ذلك: 1- أولاً، الدورة الإنتاجية في مرحلة المعاصرة، فقدت شفافية التواصل بين مختلف مراحلها، فإذا تمكّنت مرحلتا الرئويّة والتصنيع، من جعل المصنّعات تتميّن بصفات إبتعالية، (توازن أمثل) فإن المتلقي لن يُعد في مقدوره أن يدرّكها وتقدّرها.

2- ثانياً، ظهور الإنسان الفرد المتشخص، شكّل عاملاً أساسياً في نقل المجتمع من صيدته التقليديّة إلى المعاصرة، ومن المجتمع الأهلي ظهر مع حركة عصر النهضة على حرفة مقدّمة جسدها المتشخص، فظهرت الحاجة إلى تصنيع الجسور، ومحطّات القطارات، وأنتج الإنسان العاقل، وهي آلة إنتاج الإنتاج، وأصبح يتعامل مع متطلبات الحاجة الإنسانية، أن يعي وأن يحصل على شخص آخر. ومع إنتاج الطاقة بواسطة الآلة، أي المكننة في الإنتاج أو الية الإنتاج، وحصول الفائض بفعل ذلك، تغيّر توزيع الناتج وتغيّر استهلاكه بين أفراد المجتمع، فتغيّرت بسبب ذلك العلاقات الاجتماعية تغيراً جذرياً.

واضح في منتصف القرن التاسع عشر، تمثّل بالمعامل وبمسكن العمال، التي خلّت من صفة الإبتعالم (التوازن الأمثل) وخلّت أيضاً من أي عاطفة إنسانية.

لقد أسّست المنشآت الجيدة التي دُكرت، المبادئ الأولية لمفهوم الحدائنة في العمارة، وحققت توافقاً جدلياً بين متطلبات التشخص، والاختصاص والمكننة من جهة، والحاجة الاجتماعية الجديدة من جهة أخرى. فقاومت في الوقت نفسه، التآثرات السلبية لمقومات الحدائنة بعدما عثت العالم لم يبنته القرن العشرون، حتى تلوّثت البيئة المعفّرة بصورة عامة، وخاصة في بلدان العالم الثالث، أو بلدان الأطراف التابعة. لقد عثت هذه البلدان، عمارة لا تتعاطف مع وجدان المجتمعات فيها، ولا تؤلّف أداة لتلبي حاجات هذه المجتمعات، وعواطفها، وأحاسيسها. أصبح المعماز الطليعي في عصر الحدائنة، متعالياً عن هموم الناس، غريباً في مجتمعه.

2-5- الحجز، عن مواجهة التلوّث

لقد عجز الفكر المعماري عن مواجهة هذا التلوّث، في حين أدانه فيه مفكرون كثير، وهم ليسوا بمعماريين، أمثال فريدريك أنجلز، وبيار برودون، وروبرت أوون، وجون راسكن، وغيرهم، في القرنين التاسع عشر والعشرين. مقومات الحدائنة هي إذاً، التشخص والتخصّص والمكننة، وهي تحمل تناقضاً جنيئياً متناصلاً فيها، يوجز الجادرجي مظاهر هذا التناقض المتناصل، على الشكل الآتي:

1- أولاً، أطلق التشخص حرّة المعمار في التصوّر، فظهرت مع هذه الحرية أشكال جديدة تمثّرت بها عمارة الحدائنة، كما ظهرت من جهة أخرى سلبيات أفسدت في المجال أمام الابتذال. 2- ثانياً، تقدّمت المعرفة في العلوم والفنون، وتوسّعت، فظهرت معرفة متخصصة في حيز جزئي، ما أدّى إلى نشوء علوم جديدة، نتج من كل ذلك، عزل المجتمع عن المعرفة المتطورة والمحرّاة، في أن واحد.

3- ثالثاً، كان تفعيل الدورة الإنتاجية ما قبل المكننة، يجري غالباً باستنفاد الطاقة البشرية مع المكننة، أصبحت الطاقة الية، فنجاورت القدرات الإنتاجية محدّات الطاقة الجسدية.

أهم مقومات هذه الحركة، هي حركة الحدائنة:

1- أولاً، توافق الإنتاج المعماري مع متطلبات المكننة في الصناعة. 2- ثانياً، ليجرالية، وربما اشتراكية مواقف المنظرين فيها، حيال هموم المجتمع. 3- ثالثاً، إلا أنّ احتلال الدول الأوروبية الصناعية لمختلف بلدان العالم عسكرياً، استدعته لها، أدى كل ذلك، إلى تجاهل حركة الحدائنة، لتخصّصات الإصناعيّة والثقافية والجغرافية والاجتماعية لهذه البلدان، وتجاهل كل مقومات الهوية والتميّن لديها، فعثت أوروبا

2

أصبح المعمار الطليعي في عصر الحدائنة، متعالياً عن هموم الناس، غريباً في مجتمعه

3

العالم، عمارة لا إنسانية، كئيبة، ملوّثة، مغربة. 3-3 تقنية المكننة، والفرق بين التصنيع اليدوي، والتصنيع المكنن. حدث تغيير جذري مع ظهور المكننة في أواخر القرن الثامن عشر، بشدّ الجادرجي، صنّع الحديد الصلب، وضمتّ الصور البيوت الزجاجية، وشُدّت تقنيّة المكننة، شيّد القصر البلووي في عام 1851 لتقنيّة المكننة، شكّلاً متوافقاً مع العلاقة الجدلية بين المادة الجديدة وطرق تصنيعها من جهة، وبين الحاجة التي تمثّ لتبنيها من جهة أخرى، يكرز الجادرجي بإصرار هادف، انتقلت العمارة النهضويّة المعاصرة بهذا، إلى شكل جديد

تأسست فيه المبادئ التكوينية الأولى للعمارة الحديثة. مع ظهور المكننة وانتشارها، غاب تماس المصنّع المباشر مع التغيير الحاصل في حالة المادة، وتراجعت علاقه السيربانية بها. تُشكّل هذه الحالة، جوهر الفرق، بين التصنيع اليدوي والتصنيع المكنن.